لماذا تفلسف الانسان ؟

للدكتور محمـــد البهى

يعتبر مؤرخو الفلسفة القرن السادس قبل الميلاد بداية التفلسف الإنسانى . والفلسفة إذا قيل فى شأنها إنها محبة الحكمة ، والتفلسف إذا عبرعنه بأنه البحث عن الحكمة ، فمن غير شك أيضا أن الفلسفة فى أول عهدها مجموع المعارف التى حررها الإنسان أو استخلصها من المعارف السابقة على عهدها ؛ وأن التفلسف فى بداية عهده أيضا نظر الإنسان فى هذه المعارف السابقة لاختيار مايصلح منها فى رأيه للبقاء . فالفلسفة هى معارف مختارة ، والتفلسف هو إعمال الروية فى تصفية المعارف التى كانت متداولة فى الجماعة الإنسانية إلى حين التفلسف فى القرن السادس قبل الميلاد .

والتفلسف إذا كان تصفية واختيارا يفرض طبعاً وجود مجموعة من المعارف متداولة يضعها محلا للتصفية والاختيار . وقبل عهد التفلسف كانت هناك معارف متداولة فى الجماعة الإنسانية ، ولكنها كانت كلها معارف إلهية ، أى كانت منسوبة إلى الآلهة ، وكانت طائفة بالذات هى طائفة رجال الدين أو من تسمى بالكهنة تقوم بشأنها وتتعهدها بالحفظ والتناقل والشرح . وما عدا هذه الطائفة من طوائف أخرى كانت تقف من هذه المعارف موقف القابل المطيع الذى لا يسمح له بمعارضة أى نوع منها ولو معارضة نفسية داخلية ، فضلا عن معارضتها بالتفنيد عن طريق الحجة أمام آخرين ، فهذه المعارف لها قداستها من الجميع ، وقداستها تمنع نقدها وتحتم قبولها .

والإنسانية فى جماعات مختلفة وفى أجيال متعددة قبلت المعارف الدينية ، وقبولها يتضمن تقديسها وعدم نقدها ، وتقديسها وعدم نقدها ينسحب إلى تقديس من يقوم بأمرها وعدم معارضته . وما عرف للانسان من عمل فيها كان عبارة عن شرحها شرحاً عقليا يساعد على رواجها لدى أصحاب القلق النفسى من التابعين للدين . وبهذا كان عقل الإنسان فى خدمة التعاليم الدينية ولتأييد قداستها وقداسة القائمين بأمرها . وقد نسترسل فندعى أن خدمة الإنسان لهذه التعاليم عن طريق عمله العقلى لم يكن لعهد وجودها

من فرسان الهلب على فرس له أدهم وبه نيف وعشرون جراحة ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حمل يزيد ولّى الجمع ، وحماهم فارسان ، فقال يزيد لقيس الخُشَنى : من لهذين ؟ قال : أنا . فحمل عليهما ، فعطف عليه أحدهما ، فطعنه قيس الخشنى فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعاً إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنى : اقتلونا جميعاً . فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء فحجزوا بينهما ، فإذا معانقه امرأة ، فقام قيس مستحيياً ، فقال له يزيد : أمّا أنت فبارزتها على أنها رجل ، فقالت : أرأيت لو قتلت ، أما كان يقال قتلته امرأة .

ولم يناقش العلامة المرصفى فى (رغبة الآمل) صاحب (الكامل) فى موضع من المواضع الأربعة فى حين أنه نبه على أشياء غير قليلة فى كتابه .

والحريرى الذى اعتاد تخطئة الصواب فى (درته) لم يغلط إلا من خفف النيف .

وقال أبو بكر الخوارزمى فى إحدى رسائله (ص ١٣٢ مطبعة الجوائب) : فى نيف وسبعين من جماعة شيعة .

ومثل هذا الاستعمال فى مروج الذهب ج٢ ص ١٩٥ و ج٣ ص ٥٨ .

وفى تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٢١٢ .

ومثله فى (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ج ١ ص ٢١٦ و ج ٢ ص ١٤١ و ج ٤ ص ٢١٥ و ج ١٦ ص ٢١٩ و ج ١٧ ص ٢٣١ و ج ١٨ ص ٨١ .

ومثله فى (معاهد التنصيص) ج١ ص١٠٢ وج٢ ص١١٦ و١٨٢ وفى (كليات أبى البقاء) ص ٣٦٠ .

* * *

ذلكم ما جاء فى مصنفات القوم ، وقد نزل النيف فى أقوالهم حيث نزل . وإنا لنستبعد تبديل ناسخين فيها . فما الذى حملهم على تقديم الزيادة على المزيد عليه ؟

هل قاسوا النيف على البضع فى بعض حالاته فقالوه ، أو استخفوا هذا التركيب فشوه . وهل عليهم فيما أتوه من حرج ؟

وهل نؤخر نحن معشر العرب فى هذا الزمان أو نقدم ... ؟

محمد إسعاف النشاشيبى

ونشأتها فحسب ، بل استمرت أيضا فى مراحل تطورها. والإنسان بعقله كما أيدها فى صفائها أيدها أيضا وقد دخلتها صنعة الدين . وربما كان تعظيم طائفة الكهنة وتميزها عن بقية الطوائف فى الأمم الشرقية القديمة من عمل الإنسان المؤيد أو من نتائج تأييده لتلك التعاليم عن طريق عمله العقلى ، ولم يكن بوحى أصل من أصول أديان تلك الأمم .

وقبل التفلسف الإنسانى أو قبل التفلسف الإغريقى فى القرن السادس قبل الميلاد كانت تسيطر إذاً على معارف الجماعة الإنسانية عدة مظاهر :

١ — كانت المعارف الدينية وحدها هى التى تقود الإنسان .

٢ — وكانت طاعة الإنسان لهذه المعارف ناشئة عن تقديسه لها واعتقاده بعصمتها .

٣ — وكان القائم بأمر هذه المعارف ، سواء بتعليمها وتلقينها أو بشرحها وتحديد مدلولات عباراتها ، طائفة معينة هى طائفة الكهنة .

٤ — وعمل الإنسان العقلى كان مرتبطا بأصول هذه التعاليم وفى خدمتها ولغاية تمكينها من النفوس الحائرة .

* * *

وإذا كان القائم بأمر التوجيه فى الجماعة الأنسانية طائفة معينة ، وإذا كانت فى توجيهها تصدر عن إرادة الله ومن تعاليم وسيط فى الكون وهو الرسول ، وإذا كان غيرها من الطوائف فى الجماعة عليه أن يخضع ويطيع فحسب ، فليس هناك من ضمان فى أن يبقى توجيه الطائفة المعينة فى دائرة التعاليم الأولى للدين . وليس هناك من ضمان أيضاً فى أن يكون شرحها لهذه التعاليم فى حدود الغاية التى يبغيها صاحب الرسالة ، بل يجوز أن تجعل هى من الدين سرا تختص بعلمه دون بقية التابعين وهو غير ماعرض على هؤلاء التابعين ، ويجوز أن تشرح ماعرف لهؤلاء باسم الدين بما تراه هى لا بما يهدف إليه الدين نفسه . وإذا جعلت من الدين سراً لخاصابها فليست هناك لأحد استطاعة فى أن يراقبها فيه ، وإذا فسرت ماعرفه الناس من تعاليم الدين بما تراه هى فاسناد التوجيه إليها خاصة وقيامها وحدها دون سواها بأمر هذه التعاليم يحميها من التجريح ومن رميها باتباع الهوى والغرض فى التفسير . ثم نسبتها إلى مقدس هو الدين يزيد فى حمايتها وفى إبعاد الأعراض الخاصة عنها .

وفى طبع الأنسان إذا شعر بالتميز أن يطمع فى أن تتسع دائرته حتى ليود أن يصبح طبيعة أخرى مغايرة لطبيعة الانسان ولكنها أرقى منها . ورجال الدين أو طائفة الكهنة كانت متميزة لأنها اختصت بمعرفة الدين وشرحه والقيام عليه ، وطمعت أيضا فى أن يزداد تميزها . وقد زاد حتى عدت فى بعض العهود أبناء للآلهة أو من سلالتها كما اعتبرت بعض الطبقات الأخرى عبيدا لها . وانقسمت الجماعة الانسانية عندئذ إلى قسمين متقابلين : قسم شريف هو طائفة الكهنة ، وقسم آخر خسيس هو العمل والأكرة

وإذا تميز الإنسان أو ادعى تميزه إلى حد أن يعتبر طبيعته مغايرة لطبيعة من دونه ، وفى الوقت نفسه يتولى هو أمر هذا الذى دونه ، فتوليه للأمر يصدر فيه عن الشعور بالمفارقة . والكهنة كذلك جعلوا الناس مختلفين ، ووضعوهم أمام آلهتهم مواضع مختلفة وجعلوا تكاليفهم ورسومهم فى العبادة مختلفة أيضاً .

وهكذا آل الدين الذى شأنه أن يسوى بين الناس فى الطبيعة ويجعل تفاوتهم فى بعدهم أو قربهم من مثله الأعلى ، إلى أن يكون عاملا فى التفريق بين طبائعهم . وهكذا آل أمر رجال الدين إلى أن يكونوا طبقة متميزة ، وآل توجيههم إلى أن يكون إملاءً للمحافظة على تميزهم أو للمحافظة على بقاء دولتهم . وبالتالى أصبح الدين صناعة محتكرة ، وأصبحت المعرفة المسيطرة على الجماعة الإنسانية لا لإرشاد الإنسان إلى سعادته ، بل لإسعاد طائفة معينة.

* * *

هذا المصير الذى صارت إليه المعرفة الدينية ، وصار إليه رجال الدين فيما قبل القرن السادس قبل الميلاد ، وصارت إليه الجماعة الإنسانية ، حمل بعض الناس على أن يثور ، وعلى أن يسلك طريق الفكر فى ثورته للرد والإقناع . ولم تكن ثورته الفكرية حباً فى معالجة الجدل ، بل لوضع حد لامتهان الإنسان ، ورد اعتبار الإنسان ، وتخليص الإنسان من الإنسان ، وإسعاد كل فرد من الإنسان لا طائفة معينة بالذات . وتوجه هذا البعض إلى تعاليم

الكهنة لا ليقرها ويقبلها كما كان الشأن بالنسبة إليها بل لينقدها. ومعيار نقده ليس السماع والرواية ، وليس الإذعان للعصمة والقداسة ، بل عقله ومنطقه .

وأطلق على هذه الثورة الفكرية تفلسفاً . والنفر الذى رفع علم هذه الثورة كان من الإغريق . والشرق إذا كان فكر قبل هذا ، وأنتج فى محصول الفكر البشرى ، فقد كان على نحو ما بينا فى دائرة الدين ولخدمة المعارف الدينية . والإصلاحات التى قامت فى الشرق لرفع مستوى الإنسان ورد اعتباره وإزالة الفوارق الطائفية كانت إصلاحات دينية كالزرادشتية والبوذية . فالأولى كانت تعديلا دينياً أو إصلاحاً دينياً للديانة الشعبية الآرية التى قامت على عبادة النار والطبيعة المحسوسة ، والثانية كانت تعديلا للبراهمية التى حولت الجماعة الهندية إلى طبقات متفاوتة فى الطبيعة .

وبنشأة التفلسف تكونت الفلسفة ، وأصبح فى الجماعة الإنسانية نوعان من المعرفة : المعرفة الدينية ، والمعرفة الفلسفية أو الإنسانية . وإذا كانت الأولى يدعى فيها العصمة ، فالثانية للإنسان أن يصوب أو يخطئ فيها . وإذا كانت مبادئ الأولى محدودة لأنها وقف على الوحى ، فالثانية قابلة للزيادة والنماء لأنها فى متناول كل الأجيال الإنسانية . وإذا كان رجال الدين هم المحافظون فى كل أمة بحكم موقفهم من عدم التصرف فى معارف الدين ، فالفلاسفة هم رجال الثورة الفكرية وأصحاب التطور فى توجيه الإنسان . وإذا كان رجال الدين يضعفون من قيمة الإنسان واعتباره ، وقد يلغون أثره فى الحياة ، ويردون كل أثر فيها إلى الله ، لتتضاعف بذلك عظمة الإله ، فالفلاسفة يشيدون بالإنسان وينسبون إليه أثراً ويسندون إليه فعلا فى تغيير الحياة نفسها .

والفيلسوف وإن كان رجل ثورة على التعاليم الدينية ، فثورته فى الواقع على التعاليم التى كونها الإنسان باسم الدين ، والتى ربما قلب بها أوضاع الدين وحرف بها هدفه . والفيلسوف وإن رمى بالإلحاد فرميه به عادة من رجال الدين ، وليس بلازم أن يكون منكراً للدين وإن أنكر تعاليم رجاله . ولكنه مع عدم إنكاره الدين لا يبلغ بلغ رجل الدين فى إلغاء وجود الإنسان بنية إظهار عظمة الله .

ولأن التفلسف فى بدايته كان خروجاً على تعاليم رجال الدين وعلى المألوف من المعارف المسيطرة على الجماعة الإنسانية عدّ الفيلسوف مناوئاً لرجل الدين وعدت الفلسفة عدوة للدين . وبمقدار ما فى القضية الأولى من صدق بمقدار ما فى الثانية من مبالغة . إذ الأديان فى طبيعتها تنظر إلى أفراد الإنسان نظرة مساواة وتهدف إلى إسعادهم جميعاً ، وكذلك الشأن فى الفلسفة ، وفقط طريق أحدهما قد يختلف عن طريق الآخر .

وكما لم تستطع الفلسفة أن تلغى الأديان كذلك هذه لم تستطع إلغاء الفلسفة ، بل الفلسفة إن لم تنته إلى ماينتهى إليه الدين ، تعترف بحيز له لا تستطيع السير فيه إذا اقتحمته ، والدين فى وضعه الأصلى إذا لم يشجع التفكير الإنسانى فى دائرة ما رسمه له يدع له مجالا خاصاً به ، لا يبدى — إذا أبدى — رأياً فى ناحية من نواحيه إلا عن طريق الإجمال .

وما بين الفلاسفة ورجال الدين ، فلأجل توجيه الإنسان . فالفلاسفة يرون أن رجال الدين لما لتعاليم الدين الذى ينسبون إليه من قداسة ، ولما لهم هم أنفسهم من طبيعة إنسانية تميل إلى الجاه والسلطان ، قد يكون لهم خطر على الإنسان فى قيادتهم له إن احتكروا الدين وجعلوا فيمه وقفاً عليهم وحدهم . فلكى لا يقع هذا الخطر يذكر الفلاسفة بتفلسفهم الإنسان بقيمته واعتبار وجوده ، حتى لا يكون انجذابه إلى تعاليم رجل الدين عن غير روية واختيار . ورجال الدين لأنهم يرون فى الفلاسفة منكرين لأفهامهم الدينية ومفرقين بين الدين وتعاليمهم ، ومحرضين الإنسان على عدم الانقياد لهم فى يسر وسهولة يقررون بعد الفلاسفة عن التوجيه الصحيح للانسان ويصورونهم منحرفين عن الدين .

وإذا كانت الفلسفة فى بدايتها تكونت من المعارف الدينية ، فالفلاسفة فى العصور المختلفة إلى عصرنا الحاضر نشئوا تنشئة دينية وكانوا من رجال الدين قبل أن يصيروا من رجال الفكر ، وإن اختلفت بدايتهم عما صاروا إليه ، فليس لأنهم أنكروا الدين ، بل لأنهم خالفوا رجال الدين فى تصويرهم للدين وعرضهم له .

وإذا كان تفلسف الإنسان فى أول الأمر لرفع طغيان الإنسان باسم الدين ، فلم تزل حرية التفكير التى هى أساس التفلسف وسيلة الإنسان السلمية لتكبح اعتداء الإنسان باسم أى شىء آخر .

محمد البهى